أدب الرحلة في العصر المملوكي
(ابن بطوطة والبلوي أنموذجاً)

شكران خربوطلي، خولة خولاني*

قسم التاريخ الإسلامي، كلية الآداب، جامعة دمشق

*طالبة دراسات عليا (دكتوراه)

الملخص

يتحدث البحث عن الرحلة في العصور الوسطى بشكلٍ عام وعصر المماليك بشكلٍ خاص، ويُبيّن أهمية الرحلة وفوائدها من خلال تدوين أصحابها لأسفارهم وتنقُّلاتهم، ويذكر أبرز رحَّالة العصر المملوكي كابن رشيد السبتي، وقد تطرّق البحث للتعريف بالرحالة ابن بطوطة من حيث المولد والنشأة والوفاة، كما تحدّث عن رحلته إلى مصر المملوكية وبيّن بعض ملامح الحياة اليومية السّائدة في عصر المماليك التي وردتْ في هذه الرحلة، كما عرَّف البحث بالرحالة المعاصر لابن بطوطة خالد بن عيسى البلوي، وعرَضَ البحث أيضاً لمحة عن رحلة البلوي في مصر المملوكية، ثمّ بيَّن البحث نقاط الاختلاف والالتقاء بين الرَّحَّالتين (ابن بطوطة والبلوي).

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، العصر المملوكي، ابن بطوطة، البلوي.

ورد البحث للمجلة بتاريخ 10/ 2 / 2015

قبل للنشر بتاريخ 17/ 12 / 2015

Travelling Literature in the Mamluk Period

(Ibn Battuta and Al—Balwy: Two Examples)

Shoukran Kharbutly, Khawla Khawlany*
Dept. of Islamic History, Faculty of Arts, Damascus University
*Postgraduate Student (PhD)

Abstract

The research talks about travelling in the Middle Ages in general and in the Mamluk Period in particular. It has showed the importance and benefit of travelling, through travellers' writings in which they told about their travels and journeys. The research has mentioned the most prominent explorers in the Mamluk Period such as Ibn Rasheed A-Sibty. It has also touched on introducing the Explorer Ibn Battuta: his birth, upbringing and death. In addition, the research has talked about Ibn Battuta's journey across Egypt in the Mamluk Period, and showed some of the features of the daily life in that Mamluk period, which he, Ibn Battuta, mentioned after his journey there. Furthermore, the research has introduced Khaled Bin Eassa Al—Balwy, the explorer who was contemporary to Ibn Battuta; it has given an overview of Al—Balwy's journey across Egypt in the Mamluk Period. Then the research has presented the points both explorers (Ibn Battuta and Al—Balwy) disagreed upon and the points they agreed upon.

Key words: travelling literature, the Mamluk Period, Ibn Battuta, and Al—Balwy.

2015/2/10Received
2015Accepted 17/12/

1- مقدِّمة:

منذُ قديم الزّمان والإنسان العربي لديه شغفٌ بالرحلة وإن اختلفتْ دوافعه بين عصرٍ وآخر، ولكن مع ظهور الإسلام أصبح الاهتمام بالرحلة أشدّ وأعظم لما تعود به هذه الرحلات من فوائد جمّة على الأمّة الإسلاميَّة. وأصبحتْ كتب الرحالة المسلمين من أهم مصادر التاريخ الإسلامي لما تحويه هذه الكتب في طيّاتها من معلوماتٍ ذات قدرٍ كبيرٍ من الأهميّة على اعتبار أنّها من المصادر الموثوقة الشاملة من النواحي التاريخية، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والثّقافيّة، والجغرافيّة...الخ.

2- أهمية البحث وأهدافه:

تتجلّى أهمية البحث في أنّ هذا النّوع من المصـــادر لم ينل من الدِّراســـة – على الرّغم من أهميّته – ما يستحق، وإن كانت رحلة ابن بطوطة على وجه الخصوص قد حظيت بنصـيبٍ لا بأس به من الدراسـة والتمحيص على عكس رحلة البلوي وغيرها من مصـادر الرحلات الأخرى، إذ ابتدأت الدِّراسات النَّقديّة لرحلة ابن بطوطة منذُ اليوم الأول الذي نُشِـــرتْ فيه الأطراف الأولى من الرحلة في بعض البلدان الأوربيَّة، ومن أشـهر مَنْ تناولها بالنَّقد – بعد النّاشـرين الفرنسـيين– السّـير (هاملتون جب) والتشـيكيّ (إيفان هربك) والباحثان الفرنسـيان:(فانسـان مونطيِ)، و(سـتيفان ييرازيموس)، و(روس دان) وآخرون غير هؤلاء، وبذلك توفرتْ دراســـاتٌ نقديّة أثْرتْ الرحلة وأثارتْ انتباه الباحثين إليها من ســـائر جهات المعمورة [1]. أمّا رحلة البلوي فيبدو أنّها لم تنل حقّها في الدِّراسة من قبل المختصِّين على الرغم من أهميَّتها.

3- أدب الرحلة عند المسلمين في عصر المماليك وأبرز رحَّالَتِهِ:

إنّ العوامل التي دفعت الأمم القديمة كالفينيقيين واليونان والروم وعرب الجاهليّة إلى القيام بالرحلات هي التّجارة والاستيلاء على البلاد والسّياحة في الأمصار ولمّا جاء الإسلام اتسعت فتوحات العرب في القرن الأوّل وأصبح لهم ملك واسع الأرجاء ففتحوا بلاد ما وراء النّهر والسّند سنة 89هـ/708م، وفتحوا كذلك بلاد الأندلس وتوسّعوا فيها سنة 93-94هـ/711-712م، وواصلوا زحفهم من ناحية الشّرق حتّى وصلوا إلى حدود الصّين وأخذوا الجزية من أهلها سنة 96هـ/714م وفي هذه المرحلة نفسها كانت بين الصّين وبلاد العرب صلات تجاريّة مهمّة عن طريق سيلان وفي بداية القرن الثّاني

الهجري/الثامن الميلادي كانت التّجارة بين الصّين وبلاد العرب هي السوق الرئيسية للتجار الصينيين [2].

وبذلك تكون العوامل التي دفعت العرب المسلمين للقيام بالرّحلة أكثر تعقيداً وتنوّعاً ومنها ما اختصّوا بها دون غيرهم من الشّعوب الأخرى الّتي سبقتهم لأنّ رسالة الإسلام الّتي حملها العرب المسلمون كانت رسالةَ عالميّة لا تختصّ بمكان ولا بزمان معيّنين. قال تعالى:﴿ک ک گ گ گ﴾ [3]. إذاً كان نشر الدّعوة الإسلاميّة سبباً في توسيع الرّحلات والأسفار عند العرب المسلمين.

وهناك اختلاف بين الدّارسين في تاريخ ولادة فنّ الرّحلة بشكلٍ عام، فمنهم من يذكر بأن مولد الرّحلة ونشأتها كان في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي [4]. بينما يرى بعضهم الآخر أن نشأة الرحلة كانت في القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي [2].

وقد اختصّ الأندلسيّون والمغاربة بفن الرّحلة أكثر من المشارقة ذلك أنّ مركز الحج في المشرق، وكذلك مراكز العلم الأولى في دمشق وبغداد والقاهرة الّتي أصبحت محط أنظار طلبة العلم والّتي سعوا للقاء العلماء فيها والاستفادة منهم [5]. وكان للرّحلات المغربيّة والأندلسيّة أنواع منها رحلات علميّة وأخرى وصفيّة، ومن أصحاب الرّحلات العلميّة ابن رشيد (محمّد بن عمر بن محمّد بن عمر بن إدريس بن سعيد بن مسعود بن حسن بن محمّد ابن عمر بن رشيد الفهريّ السّبتي من أهل سبتة في المغرب، يكنّى أبا عبد الله ويعْرَف بابن رشيد) الذي وُلِد في سبته 657هـ/1258م ونشأ فيها، حرص ابن رشيد على لقاء العلماء والأخذ عنهم وسجّل ذلك بصورةٍ واضحة في رحلته الّتي دوّنها والمسمّاة **(ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين إلى مكّة وطيبة)** [6]، وتعكس هذه الرّحلة العديد من الجوانب ذات الطّابع الحضاري والفكري، خاصّة ذلك الّذي كانت عليه الدّيار المصريّة في القرن السّابع الهجري/الثالث عشر الميلادي.

أمّا الرّحلات الوصفيّة فكان من أصحابها البلوي وابن بطّوطة، وتشتمل الرّحلات الوصفيّة على الجوانب التّاريخيّة والنّواحي الاقتصاديّة والاجتماعيّة والسّياسيّة. وإن كانت رحلة البلوي تشتمل على الجانب العلميّ أيضاً متّفقاً في ذلك مع ابن رشيد [5].

لتصبح هذه الرّحلات من أهم المصادر في التّاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع حول مشاهدات الرّحّالة المباشرة لأحوال الشّعوب وبلاطات الحكّام، ولكن مما يؤسف له قلة ما وصل إلى الباحثين المسلمين من الرّحلات لأن إنتاج هذا الفن قد تعرّض إلى ما تعرّضت له نواحي الإنتاج العلمي الأخرى في الإمبراطوريّة الإسلاميّة [7]، إضافة إلى أنّ كثيراً من الرّحّالة لم يدوّنوا أخبار رحلاتهم في كتب مستقلّة وإنّما ذكروا أخبار رحلاتهم فيما ألفوه من كتب التّاريخ وتقاويم البلدان، كما أنّه ثمّة رحلات قام بها التّجّار ضاعت أخبارها أو لم يدوِّنها أصحابها [8].

4- ابن بطوطة:

أ- اسمه ونسبه ونشأته:

ذكره صاحب الّدرر الكامنة فقال:" هو محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم بن محمّد بن إبراهيم بن يوسف اللّواتيّ الطنجيّ أبو عبد الله "[9].

وذكره ابن الخطيب في الإحاطة فزاد في نسبه حيث قال: " محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إبراهيم (بن عبد الرّحمن) بن يوسف اللواتي من أهل طنجة، يكنّى أبا عبد الله ويعرف بابن بطوطة"[10]. وُلِدَ ابن بطوطة عام703هـ/1304م، ولقّب بشمس الدّين[11]، وقد نشأ ابن بطوطة في بيت كريم، ودرس على منهاج آبائه فتفقّه وتأدّب ونظمَ الشعر أيضاً [12]. وينسب ابن بطوطة لأسرة علم منها القضاة والعلماء، وهو ما ذكره لسلطان الهند عندما خيّره بين الوظائف الّتي يرغب بها، فقال: "أما الوزارة والكتابة فليست شغلي [11]. وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي" [11].

وعُرِفَتْ أسرته ببساطة العيش وسعته، وقد عيّنه الحُجَّاج المغاربة رفاقه في السّفر وهم في الطريق إلى مصر قاضياً عليهم، مع أنّه كان في الثّانية والعشرين من عمره [14]. قام ابن بطوطة بثلاث رحلات زار في الأولى بلاد المشرق الإسلامي بما فيها الهند والصّين، وزار في الثّانية بلاد الأندلس، وزار في الثّالثة بلاد السّودان الغربيّ. وكان قد غادر طنجة مسقط رأسه في يوم الخميس الثاني من رجب عام 725هـ/1324م قاصداً بيت الله الحرام، وهو لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره [11].

عاد إلى فاس عام755هـ/1354م بعد أن وصله كتاب من السلطان أبي عنان المرينيّ يطلب إليه الحضور بعد أن قضى ثمانيةً وعشرين عاماً في أسفارٍ متّصلة وأقام فيها حتى وفاته عام 779هـ/1377م.

وأثناء وجوده في فاس أُعْجبَ السُّلطان أبو عنان بما كان يرويهِ ابن بطوطة من أحاديث أسفاره فأمر كاتبه محمّد ابن جزّي الكلبي[12]. بتدوين الرحلة من خلال ما يُمْليهِ ابن بطوطة عليه، فدوَّنها ابن جزّي مستعيناً برحلة ابن جبير وسماها **(تحفة النّظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار) [15]**.وقد قدِّرت المسافة التي قطعها ابن بطوطة في أسفاره بنحو 120 ألف كيلو متر(175 ألف ميل)، وقد حاول ألا يقطع طريقاً مرتين ونجح في ذلك إلا فيما ندر، ولا يَعرف تاريخ الرحلات من أخبار مثل هذه المسافة قبل العصور الحديثة، فبذلك يكون ابن بطوطة رحالة محترفاً [15].

ب- رحلته في مصر:

بعض ملامح الحياة اليوميّة في رحلة ابن بطوطة

وصل ابن بطوطة الإسكندريّة في أوّل جمادى الأولى سنة 725هـ/1324م، أي في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطان الدولة المملوكية [11]. وقد وصف ابن بطوطة الإسكندرية وصفاً دقيقاً وبهره ميناؤها الذي قال عنه:" ... ولها المرسى العظيم الشّأن ولم أرَ في مراسي الدنيا مثله، إلا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند، ومرسى الكفار بسرداق ببلاد الأتراك، ومرسى الزيتون ببلاد الصين، وسيقع ذكرها "[11]. وذكر ابن بطوطة أنّ أحد جوانب منار الإسكندرية عندما زاره كان متهدِّماً ووصفه بدقة كما أشار أنّه عاد لزيارته بعد خمس وعشرين سنة من زيارته الأولى، "...فوجدته قد استولى عليه الخراب ..." وذكر أنّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان قد شرع في بناء منار مثله بإزائه لكن الموت لم يمهله [16]. وإن دلّ ذلك على شيء فإنه يدلّ على أنّ عهد هذا السلطان قد تميّز بالازدهار وكثرة الاهتمام بالعمارة والبناء فقد أحصى ابن أيبك الدّوادار ستة وعشرين جامعاً أنشئت في القاهرة وحدها بخلاف الزّوايا والخوانق في عهد الناصر محمّد بن قلاوون [17].

كما أنّ المقريزي أشـــار في ترجمته لهذا الســـلطان إلى أنّه كان يحبّ العمارة بمعدّل ثمانية آلاف درهم يوميّاً طول ســـني ســـلطنته الثّالثة [11]. وبعد أن عبّر ابن بطوطة عن إعجابه ودهشته بعمود السّواري حدّثنا بإفاضة عن علماء الإسكندريّة، كما تحدّث عن كبار الصّـــوفيّة منهم والكرامات المنســـوبة إليهم ومن هؤلاء العلماء قاضـــي الإســـكندريّة عماد الدّين الكندي وهو إمامٌ من أئمة علم اللســـان، ومن الصّـــالحين بها الشّـــيخ أبو عبد الله الفاســـيّ من كبار أولياء الله ســـبحانهُ وتعالى[11]. ومن يقوم بالاطلاع على رحلة ابن بطوطة في مصـــر يســـتشـــفّ من خلال صـــفحاتها انتشـــار التّصوّف في هذا العصر بكثرة وخير دليلٍ على ذلك النّص الذي أورده ابن بطوطة في طيّات رحلته إذ قال:" ... وأمّا الزّوايا فكثيرة، وهم يســـمونها الخوانق، واحدتها خانقة. والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزّوايا، وكل زاوية بمصر معيّنة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدبٍ ومعرفة بطريقة التّصـــوّف. ولكلّ زاويةٍ شـــيخ وحارس. وترتيب أمورهم عجيب. ومن عوائدهم في الطعام، أنه يأتي خدّيم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيُعيّنُ له كلُّ واحدٍ ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل إنسانٍ خبزة ومرقة في إناء على حدة، لا يشـــاركه فيه أحد، وطعامهم مرتان في اليوم. ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ،ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين. ولهم الحلاوة من السكر كل ليلة جمعة، والصـــابون لغســـل أثوابهم، والأجرة لدخول الحمّام، والزيت للاستصباح..."[11]. وهنا يتساءل المرء عن السبب الذي دفع الأمراء والســـلاطين المماليك على التنافس في بناء الزوايا، وربما يرجع ذلك إلى رغبة السلطان في تثبيت نفوذه ومكانته لدى رعيته.

ومن المناطق التي مرَّ بها ابن بطوطة غير الإســـكندرية في أثناء تجوله في رحاب مصـــر مدينة دَمَنْهور، التي ذكر بأنها ذات محاســـن أثيرة، ومدينة فَوا، ومدينة النّحْراريّة، ومدينة أبْيَار قديمة البناء، ومدينة المحلة الكبيرة التي كانت حســـنة الآثار، ومدينة دمياط ذات الثمار المتنوعة، ومدينة فارسكور، ومدينة أشمون الرمان ونسبت إلى الرمان لكثرته بها وهي مدينة عتيقة كبيرة، ومدينة قوص وأدفو ومنف والبهنســـا [11] ودمياط ...الخ[11]. وأهم المدن التي زارها ابن بطوطة من بين هذه المدن مدينة

القاهرة (مصـر) التي وصـفها وصـفاً دقيقاً وجميلاً فقال فيها: " ثمّ وصـلت إلى مدينة مصـــر. وهي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضـــة، والبلاد الأريضـة المتناهية في كثرة العمارة، المتناهية بالحسـن والنّضـارة،..."[11]. وفي أثناء وجود ابن بطوطة في مصر (القاهرة) قدّم لنا وصفاً لنهر النيل العظيم "... ونيل مصر يفضـــل أنهار الأرض عذوبة مذاق،... وليس في الأرض نهر يســـمى بحراً غيره..." [11]. كما وصـف الأهرامات وصـفاً جميلاً فقال:"... من العجائب المذكورة على مرّ الدهور. وللناس فيها كلام كثير وخوض في شـــأنها، وأولية بنائها ..."[11]. ومن القاهرة قرّرَ ابن بطوطة أن يسـافر إلى الحجاز عن طريق بلاد الشّـام، فغادر القاهرة في منتصف شعبان سنة 726هـ/1325م[18]. وفي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ظهر رحَّالةٌ آخر ليعطينا نســـيجاً جديداً في أدب الرحلة ذلك هو أبو البقاء البلويّ.

5- البلوي:

أ- اسمه ونسبه ونشأته:

خالد بن عيســـى بن أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي. من أهل قتورية والغالب أنه ولِدَ حوالي سنة713هـ/1313م [10]. من حصون وادي المنصورة [19]. لقِّبَ بأبي البقاء[19] . رحّالة من بلاد الأندلس وقد أجْمِع في الثّناء عليه لفضلهِ، كثير التّواضـع حسـن الأخلاق جميل العشـرة محب للأدب [20]. ذو حظٍّ رائق[10]. تأثّر البلوي بأهل المشـرق وعاداتهم حتّى أنّ ابن الخطيب قال فيه "... وقد شـهرته النّزعة الحجازيّة... وتشـبّه بالمشـارقة شـكلاً ولسـاناً..."، وكان يصـبغ لحيته بالحنّاء والكتم. ويلبس البياض[19]. وأثنيَ عليه بأنّه الشـــيخ الفقيه القاضـــي العادل[18]. رحل في مقتبل الشّباب، وقد جاوز سن الطلب إلى سن الاتِّصال بالعلماء والرّوايةِ عنهم، وتوفي سنة 780 هـ/1387م.

ب- حياته العلميّة:

ينتسب البلوي إلى أسرةٍ علميّة، فقد نشأ في وسطٍ علميٍّ مع تربيةٍ دينيّةٍ صالحة[20]. وعندما وصل إلى سنٍّ تؤهّله للالتقاء بالعلماء، شدَّ الرِّحال وجابَ المدن

للقاء علماء عصرهِ بفاس، وتلمسان، وغرناطة وغيرها من بلاد المغرب والأندلس[18]. ثمَّ رحل إلى المشرق للحج والاستزادة من العلم وهو في مقتبل العمر، وألّفَ رحلته التي سمّاها **(تاج المفرّق في تحلية علماء المشرق) أو(تاج المفرق في تحلية (أهل) المشرق)**[19]. وهي مليئة بالفوائد والأخبار النادرة، وفيها من العلوم والآداب ما لا يتجاوزه الرَّائد[18]. وكان من شيوخ البلوي عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي من فضلاء المالكيّة بمصر وعبد المؤمن الجناتيّ من علماء فاس وأحمد بن قاسم الشّهير بالبقيل ومحمد ابن عاصم القيسي الغرناطيّ ...الخ[18]. وكانت رحلة البلويّ بقصد الحج وطلب العلم[18]. ولم يشغل البلوي مناصب مهمّة قبل رحلته الحجازيّة ولكنَّه أثناء عودته إلى الأندلس أقام مدّةً في الإسكندريّة، تلقَّى فيها العلم وجلس للتَّدريس[20]. ثمَّ تولى الكتابة لأمير تونس أيضاً مدَّةً من الوقت[19]. كما تولى القضاء ببلدة قتورية [10] . وعدد من مدن الأندلس [18].

ج- رحلته في مصر:

وصل البلويُّ إلى الإسكندريّة في ليلة الجمعة الثالث عشر لجمادى الأخرى من عام 738هـ/1337م، وأثناء زيارته لهذه المدينة العظيمة قدّم البلوي وصفاً لبعض معالمها، ومن تلك المعالم عمود السّواري، فقال:"... ومن أعجبها وأعظمها عمود السّواري، له قاعدة مربّعة هو عليها عددت في أحد جوانبها نيّفاً على أحد عشر شبراً، وطالعتُ في بعض التّآليف أنّه أعظم عمود على وجه الأرض..." [18]. وأيضاً وصف البلويُّ منار الإسكندرية مُبيّناً أهميّته فقال فيه "... ومن عجائب الإسكندرية أيضاً المنار، وهو بخارجها قد صعد كالبرج الأعظم في عنان السّماء... قد وضعه الله سبحانهُ وتعالى على يد من سخره لذلك آية للمتوسّمين، وهدايةً للمسافرين يهتدون به في البحر إلى برّ الإسكندريّة..."[18]. أثناء وجود البلويّ في الإسكندرية تحدّث بإفاضة عمّن لقيَهُ بها من العلماء فقد التقى بحاجٍّ أندلسيٍّ هو الشّاعر ابن حاج نميري، وبالشّيخ شرف الدّين أبو العبّاس، والشّيخ شرف الدّين أبو البركات...الخ. غادر البلويُّ الإسكندريّة في 8 رجب من نفس العام وتوجّهَ منها إلى مدينة القاهرة ليصل إليها في 13 رجب من العام المذكور، وبقي فيها خمسة عشر يوماً خصّصها

للدِّراسة. وكان يحكم هناك آنذاك النّاصر محمّد بن قلاوون السّلطان المملوكيّ وفيها وقف البلويّ على الأهرامات وقدّم وصفاً رائعاً لها فقال فيها " وبها الأهرام القديمة المعجزة البناء الغريبة المنظر البديعة الإنشاء كأنّها القباب المضروبة قامت في جوِّ السَّماء، ولا سيما الاثنان منها يقصر الجوّ بهما سموّاً واتّساعاً..."[18].

وفي طريق العودة مرّ البلويُّ ثانيةً بمصر فوصف لنا نيلها العظيم والحال التي كان عليها هذا النّهر أثناء وصوله إليها (مصر) إذ قال فيه: "... بحر النيل العجيب قد فاض فيضاً، وركضت سيوله في البسيطة ركضاً وزاد امتلاؤه على حده فسقى بالزيادة أرضاً، وانسلت صلاله فسكنت الرياض ،وقد يسكن الصل روضاً... كثيراً ماكنّا نركبه ولا نرهبه، ونستصحبه ولا نستصعبه، نرد على طريقٍ إليه ونعوج عن غيره،..." [18]. ولم ينسَ البلوي أن يتحدّثَ بإفاضة عمّن لقيه من كبار المتصوِّفة في مصر، أمثال الصُّوفيّ نجمِ الدّين أبو العبّاس، وقد غادر البلويُّ الإسكندرية ثانيةً وهو في طريق العودة مُتَّجهاً إلى تونس وكان ذلك يوم الأحد الثاني من شهر ربيع الأوّل739هـ/1338م[18].

استغرقت رحلة البلويّ منذُ خروجه من قتورية وحتّى عودته إليها ما يقارب خمسة أعوام إلا شهرين اثنين وثمانية عشر يوماً، وقد تركت هذه الرحلة آثارها المشرقية على البلويّ على حدِّ قول ابن الخطيب في كتابه الإحاطة [11].

6- مقارنة بين الرَّحَّالتَيْن ابن بطوطة والبلوي:

يلتقي كلٌّ من الرَّحَّالتين البلوي وابن بطوطة في كثيرٍ من النِّقاط وكذلك يفترقان في كثيرٍ من النِّقاط أيضاً.

أ- نقاط الالتقاء:

- كلا الرَّحَّالتين يعودان للقرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فابن بطوطة أبصر النور في العام703هـ/1304م، وبدأ رحلته عندما خرج من طنجة في يوم الخميس الثاني من شهر رجب عام 725هـ/1324م، أي كان عمره آنذاك اثنين وعشرين عاماً [18]. أما البلوي فقد وُلِدَ حوالي عام 713هـ/1313م، وبدأ رحلته من خروجه من بلده قتورية في يوم الأحد السابع من جمادى الأولى عام735هـ/1334م، أي كان في الثالثة

والعشرين من عمره [11]. فكلا الرَّحَّالتين كانا في مُقتبل الشّباب.

– وبالنسبة لأهداف الرَّحَّالتين كان لابن بطوطة هدفان من خروجه في الرحلة، الأول أداؤه لفريضة الحج وزيارته للأماكن المقدّسة [21]. والهدف الثاني حبّه للاطلاع والمشاهدة، فقد كان شغفه بالسَّفر يستحوذ على عقله وقلبه [18]. وقد اتفق البلوي مع ابن بطوطة في الهدف الأول وهو زيارة مكة المكرمة وقبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، بينما اختلف معه في الهدف الثاني وكان علميّاً بحتاً يدلُّ على ذلك ما أورده البلوي في نصّ رحلته من التقائه بالعلماء والأخذ عنهم [10].

– وقد اتفق كلٌّ من البلويّ وابن بطوطة بوصولهما إلى مصر زمن السلطان النّاصر محمّد ابن المنصور قلاوون، ووصفهما لعمود السواري والأهرامات والقرافة وبحر النّيل ومنار الإسكندرية وغير ذلك من الأماكن الأخرى وإن اختلفت طريقةُ الوصف بينهما.

– أيضاً كان كل من ابن بطوطة والبلوي عبارة عن شاهد عيان لما دوّنَ في مصدريّ الرحلتين.

– وفيما يخصُّ آراء العلماء المعاصرين للرحّالتين لم يخلُ الأمر من بعض الاتّهامات لكليهما، فابن الخطيب صاحب كتاب الإحاطة اتهم أبو البقاء بأنه أخذ معظم كلام رحلته من العماد الأصفهاني حيث قال: "... قيّدَ رحلته في سِفْرٍ وصف فيه البلاد ومن لقي، بفصول جلب أكثرها من كلام العماد الأصبهاني..." [10].

وعلى الرغم من أنّ ابن الخطيب لم يرَ الرحالة الشهير ابن بطوطة مطلقاً إلا أنّهُ ذكره في الإحاطة أيضاً فقال: "هذا رجلٌ لديه مشاركة يسيرة في الطلب رحل من بلاده إلى بلاد المشرق يوم الخميس الثاني من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمئة فدخل بلاد مصر والشام والعراق، وعِراق العجم وبلاد الهند والسِّند والصين وصين الصين وبلاد اليمن وحجَّ عام ستة وعشرين وسبعمئة...، وكانت رحلته على رسم الصوفية زياً وسجيةً ثم قفل إلى بلاد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق وما استفاد من أهله فكذّب وقال، لقيته بغرناطة وبتنا معه ببستان أبي القاسم ابن عاصم بقرية نِبْلة وحدّثنا في تلك الليلة وفي اليوم قبلها عن البلاد المشرقيّة وغيرها ..." ثمّ علّقَ لسان الدّينِ قائلاً: "وأحاديثه في الغرابة أبْعدُ من هذا..." [22]. ولم يكن العلامة ابن خلدون

أكثر مديحاً له من معاصريه فقد أعرب في كتابه المقدمة عن الشُّكوك التي تساوره فيما رواه ابن بطوطة من القصص قائلاً:"... وكان يحدِّث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض وأكثر ما كان يحدِّث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغربه السامعون: أنّ ملك الهند إذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يومٍ مشهود يبرز فيه النّاس كافة إلى صحراء البلد ويطوفون به وينصّب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدّراهم والدّنانير على الناس إلى أنْ يدخل إيوانه وأمثال هذه الحكايات فتناحى النّاس في الدولة بتكذيبه ...".

– ومن نقاط التشابه أيضاً أنّ الرحالتين سافرا معاً في وقتٍ متقارب، فابن بطوطة خرج من مسقط رأسه طنجة عام 725هـ/1324م، في حين خرج البلوي من قتورية سنة 736هـ/1335م، وبذلك يكون الفرق بين كليهما حوالي عشر سنوات.

– واتفق الرحالتان بشغفهما للقاء أهل العلم والتصوف أيضاً.

– كما سلك كلٌّ من البلوي وابن بطوطة طريقاً واحداً من إفريقيا إلى تونس، ثم افترقا بعد ذلك.

ب– نقاط الاختلاف:

– وبالنسبة لخطِّ سير الرحلة فقد تابع ابن بطوطة سيره إلى المشرق عبر تونس ومصر والشّام لأداء فريضة الحج في مكة لأول مرة، ثمّ رحل بعد ذلك إلى شرق إفريقيا ومصر والشام وآسيا الصُّغرى وأدرك الهند، ثم ذهب بعد ذلك إلى الصين، وفي سنة748هـ/1347م رجع عبر سومطرة إلى الهند ومنها إلى جنوب شبه جزيرة العرب ثم صعد مرّةً أخرى ساعياً إلى عبور الخليج الفارسي ليزور فاس والعراق والشام ومصر، ومن جديد اتجه إلى مكة وأتمّ حجّته الأخيرة0وفي عام 750هـ/1349م اتخذ القرار بالعودة إلى المغرب فأبحر من الإسكندرية حتى أدرك تونس وتابع بحراً حتى وصل تنَس. ومن هناك ركب برّاً حتى تلمسان ومنها تابع إلى فاس وكان ذلك زمن السلطان أبو عنان المرُّيني (750هـ/1349م). وبعد إقامةٍ قصيرة في فاس قام بزيارة مملكة غرناطة زمن السلطان يوسف الأول وجاز من جبل طارق بحراً إلى سبته، وعقب رحلته

الجديدة عبر بلاد المغرب، قرّرَ التّجوُّل في بلاد السُّودان ووصل إلى سجلماسة ثم عاد إلى فاس بعد أن أقام مُدّة عامين في مالي وتمبكتو[11]. ويبدو أنّه لم يترك المغرب حتى وفاته سنة 779هـ/1377م بعد أن قضى ثمانية وعشرين عاماً في أسفارٍ مُتَّصِلة. أمَّا البلويّ فقد خرج من بلده قتورية عام 736هـ/1335م وركب سفينةً في المرية ووصل حتى هُنَيْن، وبعدها رحل إلى تلمسان والجزائر وبجّاية وقسنطينة وبونة حتى وصل إلى تونس حيث بقي أكثر من ثمانية أشهر، ثمّ أبحر إلى الإسكندريّة وبعد شهر وصل البلوي إلى القاهرة وقد جاز هذا الرحالة بعد ذلك كلّاً من غزّة وحبرون حتى وصل إلى بيت المقدس كما مرَّ بالكرك والعلا ووادي القرى فوصل المدينة ومن هناك تابع إلى مكة في ذي الحجّة 737هـ/تمّوز 1773م، أمَّا رحلة العودة فقد أدّتْ بهِ إلى القدس والرّملة وعسقلان حتّى وصل إلى القاهرة والإسكندريّة ومن هناك رجع إلى تونس جاعلاً من طبرق محطّة له في برقة وبعد أن طاف بالمغرب الأدنى والأوسط وصل إلى هنين حيث أبحر أخيراً في اتّجاه المرية [18]. ومن جديد وطئتْ قدماه أرض الأندلس وكان ذلك عام 741هـ/1340م بعد غيبة خمسة أعوام [12]. وبذلك يكون البلوي قد اختلف مع معاصره ابن بطوطة في تتمة طريق الرحلة.

– أمَّا فيما يخصُّ تدوين الرحلة فقد دُوِّنت رحلة ابن بطوطة من قبل كاتب السلطان أبو عنان المرُّينيّ المعروف بابن جزّي، وقد اعتمد هذا الكاتب في تدوينه للرحلة على ما أملاه ابن بطوطة من وصفٍ للبلدان التي زارها، والطرَف والحوادث التّاريخيّة التي استطاع أن يتذكّرها. ولابن جزّي أيضا يمكن نسبة الاقتباسات الكثيرة لابن جبير التي تتداخل في نص كتاب الرحلة [18]. وكتب البلوي رحلته بنفسه، ثم تناقلها الناس عنه، ثم بدا له أن يكتبها مرة ثانية، وعرضها على أصدقائه من العلماء فدقّقوها، ثم احتفظ بها حفيده ونشرها من جديد [18].

– كان البلوي رجل علم، يدل على ذلك لقاؤه بكبار علماء الحديث والأدب، والأخذ عنهم، وذِكْر أسمائهم وألقابهم وتآليفهم ونعوتهم، فهو يسجل بدقة لغاية علمية. أما ابن بطوطة فاكتفى بلقاء العلماء وذِكْر أسمائهم وألقابهم لاسيما إنْ كانوا من أهل التصوف بغية التبرك بهم، وبذلك يكون ابن بطوطة رجل رحلةٍ وليس رجل علم.

الخاتمة:

ثمّة صفتان قد غلبتا على طبع ابن بطوطة وتحكّمتا في حياته وهما روح المغامرة وحبُّ السفر، ونزعة التّديُّن والورع، وقد قادته الصفة الأولى إلى الطواف في بلدانٍ عديدة وإلى قطع المسافات الطويلة. ولم يكن له هدفٌ سوى إشباع الرغبة الجامحة وهو بهذا الاعتبار يمثِّل الرحالة المثالي الذي لا يهدف إلى تحقيق غرضٍ علميٍّ معيَّن، كما لا يبغي كسب مغانم تجارية معينة. أمَّا الصِّفة الثانية التي تحكّمت في حياة ابن بطوطة وهي نزعة الورع والتَّديُّن، فلا ريب أنّها قد طبعت رحلته بطابعها الخاص كُليّاً فلا تكادُ تقرأ أيّة صفحة من صفحات الرحلة تخلو من الحديث عن رجال الدّين أو من الحكاياتِ ذات الصّبغة الدّينيّة. وتُعدُّ رحلة ابن بطوطة واحدة من المصنّفات الممثّلة لأدب المشاهدة والمعاينة ويتخللها لونٌ من ألوان الإثارة، وعلى الرغم من عدم تكوين ابن بطوطة العلمي إلا أنّه تمكّن خلال رحلته أن يقدّم لنا مادّةً علميّةً مهمّةً خاصّةً عن تلك البلدان البعيدة التي وصل إليها قبل غيره من الرحالة فيما يتعلق بمجال المؤسّسات والتِّقنيّات الخاصّة بالحياة الاجتماعيّة والاقتصاديّة، وبذلك يكون قد وجّه نظراته إلى آفاقٍ أكثر بُعداً ممّا سبقوه وربّما يكون بذلك أيضاً قد تفوّقَ على معاصره أبي البقاء البلويّ من هذه الناحية فيما تفوّق عليه البلويّ بالهدف العلميّ إضافةً إلى أنّ رحلة البلوي قد تكون أكثر دقّة وأكثر مصداقيّة من رحلة ابن بطوطة بحكمِ أنّ صاحبها لم يكن شاهد عيان فقط و إنّما دوَّنَ رحلته بنفسه فورَ مشاهداته للأمور فلم يتعرّض ما بذاكرته للنّسيان أحياناً أو للخلطِ أحياناً أخرى. في حين أنّ معاصره ابن بطوطة صحيح أنّه رأى بأمِّ عينه إلا أنّه لم يدوّن رحلته إلا بعد أن انتهى من التجوُّل حيث دوّنتْ مشاهداته من قبل ابن جزّي كاتب السُّلطان كما سبق ذكره، وطول مدُّة رحلته كفيلٌ لأن يتعرّض الرّحّالة أثناء سردهِ لمشاهداتهِ على الكاتب لبعضِ الخلطِ أوِ النِّسيان.

وأخيراً لابدَّ من التّأكيد بأنّ هذا لا يمنع بأنْ تكونَ رحلة ابن بطوطة مؤلّفاً ذا قيمةٍ جغرافيّةٍ وتأريخيَّةٍ وأنثربولوجيَّةٍ فحسب، بل هي في نفس الوقت كتابٌ أدبيٌّ قيّمٌ غنيٌّ بالحكاياتِ الممتعةِ والعبرِ النّافذة. وقد أثْرتْ كلٌّ من رحلتيّ ابن بطوطة والبلويّ المكتبة العربيّة الإسلاميّة بمؤلَفيْنِ عظيميْن هما **(تحفة النُّظار في غرائب الأمصار**

وعجائب الأسفار)، و**(تاج المُفرّق في تحلية علماء المشرق)**، ويحتاج هذان المؤلفان من الباحثين المختصّين ومنّ جيل الشباب في المستقبل إلى دراسةٍ موضوعيّة وفحصٍ صبور لاستخلاص معلوماتهما القيّمة لِتُسهم هذه المعلومات في خدمة تُراثِ العرب الحضاريّ.

المراجع

1- **التّازي، (عبد الهادي): ابن بطوطة أمير الرحالة**، الدار المصـرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 2002 م، ص 65.

2- **مال الله، (علي محسن عيسى): أدب الرحلات عند العرب في المشرق**، مطبعة الإرشاد، بغداد، 1978م، ص 21.

3- **سورة الأنبياء** آية / 107.

4- **كراتشكوفسكي، (أغناطيوس): تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، تر: صـلاح الدين هاشم، دار الغرب، بيروت، د.ت، ص91.

5- نواب، (عواطف محمد يوسـف): الرحلات المغربية والأندلسـية، مكتبة المملكة الوطنية، الرياض، 1996م، ص 71.

6- **الصفدي، (صلاح الدين خليل): الوافي بالوفيات**، دار فرانز شتاينر، ط2، د.م، 1962، ج4ص284.

7- **زيادة، (نقولا): الجغرافية والرحلات عند العرب**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978م، ص148.

8- **زكي، (محمد حسـن): الرحالة المسـلمون في العصـور الوسـطى**، دار الرائد، بيروت،1981، ص12.

9- **ابن حجر العسقلاني، (شهاب الدين أحمد): الدرر الكامنة**، تح : محمد سيد جاد الحق، مطبعة المدني ، ط2، 1966م، ج4، ص100.

10- **ابن الخطيب، (لسـان الدين): الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، ط1، القاهرة، 1975م، ج3، ص27.

11- **ابن بطوطة، (محمد بن عبد الله): تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تح: علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، ط 4، بيروت، 1985م، ج، ص5.

12- **زكي، (عبد الرحمن): القاهرة تاريخها وآثارها من جوهر القائد حتى الجبرتي المؤرخ (969هـ/1825م)**، الدار المصرية، القاهرة، 1966م، ص145.

13- **ضيف، (شوقي): الرحلات**، دار المعارف، ط4، القاهرة، 1956م، ص 95.

14- **حسني، (محمود حسين): أدب الرحلة عند العرب**، دار الأندلس، ط2، بيروت، 1983م، ص 35.

15- **زيادة، (نقولا): الرّحّالة العرب**، الجامعة الأمريكية، بيروت، 1956م، ص122.

16- **ابن أيبك الدواداري، (أبي بكر بن عبد الله): كنز الدرر وجامع الغرر**، تح: هانس روبرت رويمر، الخانجي ، القاهرة، 1960م، ج9، ص388-390.

17- **المقريزي، (تقي الدين أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك**، تح: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1971م، ج2، ق ص523، 548.

18- **البلوي، (خالد بن عيسى): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تح: الحسن السّائح، ج1، ص 18 -25.

19- **المقري، (أحمد بن محمد): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، تح: إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1968م، مج2 ص532.

20- **ابن القاضي، (أحمد بن محمد المكناسي): جذوة الاقتباس في ذكر من حلّ من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط ، 1974م، ق1ص 186- 187.

21- **صدقة، (جنان): الرحالة العرب**، دار الكاتب العربي، بيروت، 1993م، ص 55.

22- **ابن خلدون، (عبد الرحمن): مقدمة ابن خلدون**، تح: خليل شحادة، دار الفكر، ط2، بيروت، 1988م، ج1ص228.